

كـــــــنْ الرّاعى.....

مترجمة عن الانجليزية من كتاب « قصص من كل مكان »

Stories From Everywhere للكاتبة الانجليزية

« رودا پاور » Rhoda power

كان رجلا فقيراً ، وكان يعيش فى عهود ملوك إيران الأولين على رعى
الأغنام... لم يكن منزله كهذه المنازل المألوفة المطروقة ، وإنما هو كهف موحش
فى أحد تلال إيران ، يأوى إليه كلها خيم الظلام....!

لم يكن كهؤلاء المقبلين على الدنيا ، الظافئين إلى مَتَعِهَا ومباهجها ، وإنما
كان عازفا عنها على علم بها ، يقتصر منها على ما يمسك الرمح ، ويحبس صوت
الجوع ، ولم يكن له من حطام هذه الدنيا التى عاش فيها بعيداً عنها ، أكثر من
حارس وصديق !

وما ظنك بحارسه...؟ أهو كهؤلاء الحراس الذين يجردون بأرواحهم البريئة
دفاعاً عن متعجرف ظالم كى يسترسل فى جبروته ؟ كلا ، لم يكن واحداً من هؤلاء
وإنما هو عصاه ..! عصا الراعى المعذر ، تلك التى يتوكأ عليها ، ويهش بها على
غنمه كلها قفل راجعاً من المرعى !

وما ظنك بصديقه أيضاً ؟ أهو من طراز أولئك الأصدقاء الذين
يشقى المرء بمعرفتهم ، ويتعزى بصحبتهم ؟ لا ، لم يكن من هذا الطراز
المألوف وإنما هو — ولا تدهش — « جلد شاة » ! ولم لا يتخذ مثل هذا
الرجل من « جلد شاة » صديقاً يحرص على عودته وألفته ؟ أولاً يستدفئ به
ويتدفئ عند النوم ؟ أولاً يستتر بالنهار قيصبه الخلاق المهلهل عن أعين الفضوليين

والعابرين من أبناء السبيل ؟ وكان كما نشأ أو شاء أميا . فما تعلم قط كيف يكتب أو يقرأ ولكنه كان بتجاربه أكثر من معلم ! فقد عرف أساليب كل حيوان كاسر يهيم فوق التلال !

تعلم عادات كل حشرة تدب بين بين الأوراق والأعشاب . وأصغى إلى الطيور فألهمته أغانيها المرححة العذبة فرح الحياة ! وراقب السحب والأفلاك ، وتتبع اتجاهات الرياح والأنواء ، حتى أصبح يعرف متى تجود السماء بالمطر اللطيف المرتجى ! لقد كانت الطبيعة أستاذه الملمهم ، أستاذه الذي يتردد عليه ويأخذ عنه لباب المعرفة ، ولهذا كان أعرف بأساليب الطبيعة ، وفهم لغتها من أى إيراني آخر يعيش فى عصره !

كذلك ازداد بصراً بدنيا الرعاة الآخرين وخواطرهم ، فقد اعتاد كلما خرج بقطيعه كل يوم إلى المرعى أن يلتقى فى طريقه بأولئك الرعاة ، فيتحدث معهم ، ويتخذ له منهم تمة لقطيعه ، يؤليهم مايوليه من رعاية واهتمام !

تناقل الناس أخبار ذلك الراعى الشيخ ، وترامت إلى سكان المدن المجاورة قصص شتى عن عقله وفطنته ، ومداد رأيه وتجربته ، فطاب لهم أن يروه ، واضطربت فى أعماقهم بواعث الارتجال إليه واثالت الوفود عليه ملتئمسين الرأى فيما يغشاهم ويستبد بهم من جواذب العين ، وتنازع البقاء !

قال فريق منهم عندما رأى الشيخ فى سمته الوداع الساذج :

— أيها الشيخ المبارك ! أنت يا فيلسوف إيران القانع وأعقل من فيها ، لقد فرغنا إليك نلتمس المعونة ، فساعدنا برأيك مما ألم بنا من الشدائد .

إننا أشقياء بما يقوم بيننا وبين جيراننا من غارات وحروب !!

وصاح فريق آخر :

— ماذا نفعل ؟ لقد كنا بالأمس أغنياء ونحن الآن فقراء !!

كيف نستعيد حالتنا الأولى ، وأيامنا السالفة . . . ؟ هل نستطيع . . . ؟
وقاطع هذا الفريق فريق ثالث :

— ونحن . . . ؟ كيف نحارب الطمع في نفوسنا . . . ؟ لقد كنا بالأمس
فقراء ونحن الآن أغنياء ، والحرص على المال يُشقينا . . . !
أصغى الراعى إلى ما اضطرب به نفوس كل فريق من ألوان الشكايات
وشذوذ الشكايات ، ثم عقب على أسئلتهم بما فض مشاكلهم . وألهمهم اليقين
ولا عجب ، فمحبتة للأغنام ، رعيته الأليفة ، وتفكيره المسترسل في الناس
وأحوالهم . ضمن له صفاء الرأى ، واستقامة الفهم ، وصدق الجواب
ورجع القوم من لدنه راضين مغتبطين . وتفرقوا في المداين والقرى
يذيعون ماشاهدوا ، ويثنون على هذا الذى ألهمهم الرأى ، وأمدهم بالعون
فما أشكل عليهم ، ويدكرون لأصدقائهم عنه قصصا يتألفها الرواة وينشرونها . . .
وهكذا قُدر لهذا الراعى أن يشتهر . وأن تستفيض هذه الشهرة وتعم ، حتى
تصل إلى مسامع الشاه

كان الشاه ملكا عادلا محبوبا . وكان لا يألو وسعا في كل ما يعود بالناس
والرخاء على شعبه . كان شديد الحذر ، يروى طويلا في اختيار من يشرفون
على أجزاء مملكته من الحكام والولاة ، توخى العدل والنزاهة وكان لا يسمع
عن ذى مواهب حتى يحز به ويستوثق منه ، ثم يُقرَّ به منه وينتفع بمواهبه . ولما
أن رأى القوم يفيضون كثيرا في أمر ذلك الراعى متحدثين عن مقدرته وكفاءته
صمم فيما بينه وبين نفسه على أن يزوره متكررا ليختبره ، ويتحقق مما سمع
عنه ، فر بما وجد فيه مواهب تستغل لمصلحة البلاد ومنفعة العباد . . .
وذات ليلة استدعى الشاه خادمه الأمين « مصطفى » وقال له :

— لقد عزمْتُ على القيام برحلة متكررا . لن يصحبني في هذه الرحلة

أحد . سأخلع ثيابي الحريرية وجواهرى ، وارتندي بعض ملابسك القديمة وعباءتك الرمادية .

صدع الخادم بأمر مولاه . فأسرع يُعد كل شيء ، لقد كان هذا الخادم أثيرا لدى الشاه ، أناله الوفاء الجم ، والاخلاص الشديد مكانة يحسده عليها خدم القصر الكثيرون ، وكان له من الحظوة مايجرؤه على الاستفهام لو شاء..! لكنه فى هذا الشأن لم يسأل ، فطالما رأى سيده يخرج متنكرا فى الليل ، فيغشى مجتمعات المدينة ، ويندس بين طرائف رعيته ، كى يقف على حقيقة ما هم فيه من يسر ورخاء ، أوبؤس وشقاء..! واستدعى الشاه خادمه مرة أخرى .

— لا تنس أن تُعد كذلك شيئا من الخبز والتمر .

خبزا وتمر يا مولاي . . ؟ نعم فالرحلة ستكون خارج المدينة . وقد تستغرق بضعة أيام .

أعد الخادم كل شيء . . وخرج الشاه متنكرا يبحث عن الراعى . كان الطريق الذى سلكه يكاد يكون منقطعاً ، وحيثما أجال بصره والتفت حوله لا يرى إلا كشبانا من الرمال . وإلا بعض الشجيرات والأعشاب المتناثرة هنا وهناك . لقد كان يهون على نفسه وعشاء الطريق . ومشاق السفر بالتحدث إلى بغله حيناً ، ومضغ تمره أحياناً . وإنه لفى يأس من وجود الراعى إذ تراءى له عن بعد ما يشبه أن يكون سحابة من الغبار مقبلة نحوه ، فسرى الأمل فى نفسه من جديد وقال :

— آه... ماذا أرى ؟ لاشك أنها قافلة من التجار وجهتها المدينة ! سأسألهم فر بما رأوا فى طريقهم هذا الراعى الذى اشتهر أمره بين الناس !

استحث الشاه دابته ، واتجه نحو السحابة . وعندما صار منها قاب قوسين أو أدنى لم يجدها — كما قدر — قافلة من التجار . وإنما رأى أمامه قطيعاً من

الأغنام يرعى على سفوح التلال . لم تألف الأغنام منظرا كهذا المنظر الجديد عليها فأجفلت تهرب من هذا الذى يمشى بدابته بينها ، أما هو فقد سرته هذه المفاجأة فقال :

آها ! قطيع من الأغنام الوادعة ؟ لا بد أن راعيها طيب ! ترى أين هو ؟
أين راعيك أيتها الأغنام . . ؟

ها أنا ذاك ! ثم وقف رجل كان جالسا أمام كهف ومشى نحو الشاه حتى إذا صار أمامه ، قال له :

— السلام عليك ياسيدى . أسمح فأقدم لك قطعة من الجبن تستعين بها على خبزك . . ؟ ليس لدى نبيذ ، ولكن الماء الذى أحمله فى قربتى عذب حل الشيخ قربة الماء المدلاة إلى جانبه ، ثم خلع ثوبه الخلق — جلد الشاة — وفرشه على الأرض بعناية تامة ، كأنما يفرش ثوبا من الحرير الموشى . . ! ثم رفع رأسه وقال :

استرخ ياسيدى إني أرى من التراب المتراكم على ملابسك وفوق دابتك أنك قادم من جهة نائية ، وسفر طويل !

جلس الشاه على الثوب . . ثم بدأ يتكلم مع الراعى ، ويصغى إلى إجاباته باهتمام شديد ! وقد أدهشه ما كان يبدو على كلام الراعى من التعقل والفطنة والتجربة . . كما أعجبه إيجاز كلمات الرجل وصراحتها . . ! لقد شعر الشاه بميل إلى الاسترسال فى الحديث مع هذا الشيخ ، ولكن شوقه الملح إلى البحث عن الراعى الشهير ، والوصول إليه جعله ينهض من مكانه ، ويقول لهذا الشيخ مبتسما .

— شكرا لك على كرمك ولطفك . هل تأذن لى فى استئناف السير ؟ !
إننى مسافر بائس والطريق لا تزال أمامى طويلة !

انحنى الراعى قليلا ، ثم قال .

— سيدى ! لست مسافرا بأثسا ! إنك تلبس ثيابك الممزقة كملك عظيم ،
وكلامك كلام من اعتاد أن يكون مطاعا ! وعيناك تشفان عن التفكير والهراسة
كعنى من اعتاد أن يأمر . . ! أعتقد أنك ملك ! ألسنت خادمك الراعى
يتحدث إلى عاهله الشاه . . ؟

أدرك الشاه عندئذ أنه هو الراعى فأمسك بيده وقال له :
إن الشاه يتكلم إلى أعقل رعيته وأحكمهم . إنه يتكلم إلى من سيكون
واليا على كل قرية مرّ بها هذا القطيع . .

أصبح الراعى واليا من قبَل الشاه على جميع القرى المحيطة به واحتفل
السكان بولايته عليهم احتفالا شاملا ، ولم يكن غريبا أن يستقبلوه بمظاهر
الحفاوة الكبرى .

فقد كانوا متشوقين إلى وال يسوى بينهم بالعدل ويُبدل للضعيف من
القوى ، ويوطد دعائم الأمن الذى طالما تَمَنَّوْهُ وحنوا إليه . . ومن أقدر على
الاضطلاع بهذا العبء من هذا الذى كانوا يلوذون برأيه فى أيام المحن
والضيق . . ؟

ترك الوالى الجديد كهفه القديم ، كما ترك رعى الأغنام ، واتخذ له بيتا
أبيض يملؤه الخدم وتحف به حديقة غناء ! واستبدل بملابسه الأولى ثيابا
أخرى من الديباج تليق بمنصبه الجديد . واقتنى من الجمال والخيل والبغال
ما ينقل متاعه من مكان إلى مكان كلما أراد الارتحال .

أحب السكان هذا الوالى حبا جما ، ووثقوا به ثقة تامة ، واتخذوا منه أبا
كبيرا يسهر على مصالحهم ، ويتحرى أوجه الخير والمنفعة لهم ، إلا أنه اعتاد
منذ ولايته أن يحمل على ظهر جمل صندوقا شَدَّ عليه بالحديد والأقفال . . لقد
كان يحمله معه فى كل مكان . !

لم يكن هذا الصندوق شيئاً فى نظر الناس ، ولكنه صار شيئاً هائلاً عند
ما وجدوا الوالى يهتم به ويحرص عليه ! لقد بدءوا يتسائلون ثم يتهامون ، ثم
يخترعون الأقصاصيص حول الصندوق ، ثم يسيئون الظنون بالوالى ...! ثم
يخرجون من التساؤل والتهامس والاختراع والظن إلى تجريح الوالى ووصمه
بأشنع التهم والأباطيل ...!

فمن قائل :

— لماذا يهتم بهذا الصندوق هكذا ؟ أليكون فى داخله كنز ...؟
ومن متهمكم :

— ربما يحفظ فيه الضرائب التى يجبيها منا ...!
ومن غاضب ثائر :

— ماذا يظن هذا الرجل ...؟ أليظن أننا ندفع الضرائب له لا للشاه ؟
أريد أن يُثرى على حسابنا ...؟ إن هذا الرجل غير أمين ..!
أخذ الشك يلح على الناس شيئاً فشيئاً ، وبدأت مراجل الغيظ فى الصدور
تفور بمن أفسد المال قلبه ، ودفعه إلى الجشع والخيانة ..! لم يكن هذا الشعور
شعور فرد أو جماعة فيهمون ، وإنما كان شعوراً إجماعياً يشترك فيه الرجال
والنساء . والكبار والصغار ، فإذا زجرت النساء !

— إنه ينهب الفقراء ...!

— صاح الرجال

— بل يسرق خزينة الشاه ..!

وتدخل الأطفال :

— إنه يخشى أن يفتح الصندوقَ إنسان ...! وإلا فلماذا يحمله معه فى
كل مكان ؟



يقول المثل الايراني : « كالضوء تنتشر الأباطيل ، وكالصدق يتقبلها الناس » .. وهكذا انتشرت قصة الوالى الخائن حتى وصلت إلى القصر .. ثم أوغلت في الانتشار حتى انتهت الى الشاه .. لم يشأ أن يصدق أذنيه باده بدء ... لم يشأ أن يؤمن بأن الرجل الذى اختبره بنفسه ، والذى كان مضرب الأمثال فى القناعة والزهد يخلق منه بريق الذهب وورنيذ رجلا شرها يستأثر بأموال الأمة ..! ولكن تواتر الشائعات وتشابهها جعله يسيء ظنا به ، ويعتقد أن كل ما امتدت اليه يد الوالى الخائن ، لابد أن يكون فى هذا الصندوق الغريب! روى الشاه طويلا فى الأمر ، وطافت بذهنه صور شتى للانتقام والتثيل بهذا الوالى الخادع ..! أيعزله ويحرمه جاه المنصب ؟ أيزج به فى أعماق السجن وغياهبه جزاء على سوء فعلته ؟ أم يقتله ويمثل به كى يكون عظة وعبرة لمن شاء من الولاة أن ينهج منهجه ، ويختط سبيله ..؟

ولكن ألا يحتمل أنه برىء ؟ ألا يجوز أنه مظلوم ، وأن خصومه وحاسديه هم الذين يكيدون له ، انتقاما لحقدهم وحسدهم ، وشفاء لغيظ صدورهم ؟ مهما يكن من أمر ، فليس من السياسة أو العدل أن أعقابه قبل مواجهته هكذا قال الشاه ثم استدعى خادمه « مصطفى » وقال له

— مصطفى . سأقوم برحلة أزور فيها إحدى ولايات مملكتى ، فأحضر أنخر ثيابى ، وأرسل فى طلب جياى وحاشيتى وعبيدى .

صدع الخادم بالأمر .. وخرج الشاه فى هذا الموكب متجها إلى البيت الأبيض مسكن الوالى الخائن ، ومقر حكمه . ولم يكذب بعد بموكبه عن المدينة وأسوارها مسيرة ساعات ، حتى أبصر عن بُعد سحابة من الغبار ، سحابة لم تلتح له حتى بدا التأثير على وجهه ، وظهر الحزن فى عينيه ..! لقد تذكر الرحلة الأولى ، تذكر سحابة الغبار التى تكشفت له عن قطيع من الأغنام ، وعن راع طيب يجلس فى مدخل كهف بعيداً عن ضجة الحياة وأضوائها

كانت السحابة فى هذه الرحلة كبيرة جدا ، وعند ما انتهى الشاه إليها لم يجدها غير الوالى وخدمه ، خرجوا راكبين لمقابلة عاهلهم العظيم ! لقد كان الوالى راكبا على حصان أبيض ، وكان بجانبه جمل يحمل صندوقا كبيرا شدد عليه بالحديد والاقفال .. ! والغريب أن الجمل كان يخفقه رجال أشداء مسلحون ! ، ويسوقه رجل يحمل فى يده البنى رما طويلا ، وفى يده اليسرى خطام قرمزي يقوده منه .. ! وترجل الوالى أمام الشاه ، وانحنى الى الارض محيا ، ولكن الشاه رمقه بعين تتقد كالحجر ، ثم سأله فى احتقار وازدراء : — ماهذه القمص التى سمعتها عنك .. ؟ وأين هى الأموال التى سرقتها وأخذتها ؟ أجب ياسارق الفقراء .. !!

— مولاي ! معاذ الله أن يسرق مثلى أو يخفى أى شىء !
— لتفتح إذن صندوق كنزك هذا ! ولتُـرني كل شىء بداخله .. !

أناخ الوالى الجمل على الأرض ، ثم انحنى وفتح الصندوق بمفتاح كان معلقا فى حبل حريرى حول وسطه ، فخدق الأُمراء والقضاة فيه .. حتى العبيد تركوا أمكنتهم واندفخوا نحو الصندوق ينظرون .. ! أما الشاه فبقى فى مكانه جامدا ، فقد أدهشه أنه لم يجد فى الصندوق ما كان يتوقع .. ! لم يخرج الوالى منه ذهابا وجراهما وإنما أخرج « جلد شاة » أراه للملك ومن حوله .. ثم أخذ ببطء ينزع ملابسه الجميلة ويقول للشاه :

— أتذكر هذا الجاد ؟ إنه هو نفسه الجلد الذى جلست عليه يوم شرفتني بزيارتك الأولى . ! هذا هو كنزى يامولاي ! هو أحسن صديق عرفت فى الحياة . لقد حرصت عليه ، واصطحبته معى فى كل مكان ، ليذكرنى بأيامى الأولى .. بالأيام التى كنت أهيى فيها على وجهى بين التلال كراع فقير ..
لقد خشيت يامولاي من الحظ الباسم .. خشيت أن تطغى السعادة الطارئة

على فأنسى ما كنت عليه أولا ، وأنى ما كنت أملك شيئا أكثر من « جلد شاة » كما خشيت على نفسى شر الطمع والغرور ، وأردت أن أتذكر أنه يجب أن أظل متواضعا ..

وحرصت عليه فوق ذلك يامولاي مخافة مثل هذا اليوم ! مخافة ان يأتى يوم يغضب على فيه مولاي فيطردنى ويردنى إلى حالتى الأولى .. إلى دنيا الشظف والهيمان فى بطون الوادى .. ! فيكون هذا الصديق القديم عوناً لى كما كان ..

لم يستطع الشاه أن يغالب انفعاله عندما سمع هذه الكلمات الهادئة المؤثرة لقد أحس الندم فى أعماقه عما بدر منه لهذا الشيخ المجرب ، وشكر الله على أنه لم يتسرع بعقابه متأثراً بالأكاذيب التى لا كهـا الناس حتى أوشكت أن تؤثر عليه .. ! وقد شاء أن يُشرف هذا الوالى الممتاز ، ويعلم إعجابه . فأمسك بيده وقبّله وقال له :

— أيها الرجل العاقل ! أنت يا أعقل رجل بين أفراد رعيتى ! ستكون بعد اليوم أكبر رجل فى مملكتى !

وهكذا شهدت إيران راعيا يرفعه عقله وتسمو به عفة نفسه إلى أكبر مناصب الدولة ومع ما أحاط به من مظاهر العظمة ظل متواضعا ، محافظا حتى الموت على « جلد الشاة » ... على هذا الذى كان أوفى أصدقائه وسرَّ سعادته فى الحياة !

عبد العزيز عتيق

مدرسة محمد على الملكية للبنات